

الفوضى البناء وأثرها على المعادلة الامنية الخليجية

الاستاذ المساعد الدكتور

وائل محمد اسماعيل (*)

المقدمة:

عرفت كنظرية بنظرية الفوضى البناء Constructive Instability أو التفكيك النظيف أو الأختراق النظيف . تهدف إلى إعادة رسم الخارطة الجغرافية والسياسية على الصعيد الأقليمي مبتدئة بمنطقة الشرق الأوسط لتكون بمثابة نموذج يطبق فيما بعد على المناطق الأخرى . وهي نظرية وضعتها وروجت لها مراكز أبحاث ودراسات أمريكية في مقدمتها معهد واشنطن . وأنه لمن الطبيعي عدم الأنساق وراء فكرة أختصار الأستراتيجية الأمريكية بالطبع بهذه الأفكار والتوجهات لوحدها وأعتبر هذه الأستراتيجية ترجمة آلية لهذه الطروحات ، فهناك العديد من العوامل التي تتداخل في بلورة هذه السياسة وبخاصة المصالح الأقتصادية للشركات الكبرى والألتزامات التي تحصل عليها في الدول النفطية .

وينطلق منظور الأستراتيجية الأمريكية في بناء مفهوم نظرية الفوضى البناء من فكرة قوامها أتجاهين ، الأول يرى أن الوضع الحالي في منطقة الشرق الأوسط ليس مستقراً وأن الفوضى التي نفرزها عملية التحول الديمقراطي في البداية هي من نوع الفوضى الخلافة أو البناء التي ربما تنتج في النهاية - حسب الزعم الأمريكي - وضعاً أفضل مما تعيشه المنطقة الآن . أما الأتجاه الثاني فيرى أن الأستقرار في المنطقة هو العقبة الذي يجب أن تتغير إلى الأستقرار من أجل إيجاد فرص أفضل للمصالح الأمريكية هناك .

من هنا يتمحور بحثنا للإجابة عن غاية أساسية مفادها هل أن نظرية الفوضى البناء هي إعلان أو إعادة تأكيد لأحد معالم الأستراتيجية الأمريكية لتحقيق " الإصلاح الديمقراطي " أم لتحقيق معادلة أمنية جديدة في الخليج العربي أولاً ؟ وعلى ضوء ذلك تم توزيع البحث إلى محاور ثلاث هي :-

المحور الأول :- الأصول الفكرية للفوضى البناء .

المحور الثاني :- العراق حجر الدومينو لمعادلة أمنية جديدة في الخليج العربي .

المحور الثالث :- تقويم الفوضى البناء .

المحور الأول :- الأصول الفكرية للفوضى البناء

أصولها الفكرية تعود حسب دعاء النظرية إلى أفكار (ناتان شارنسكي) في كتابه المعنون " الطريق إلى الديمقراطية The case for Democracy " الذي عده بوش الإبن بـ (الخريطة الجينية) لرئاسته . كذلك أفكار (صموئيل هنتنغتن) في كتابه عن " طدام الحضارات " . ورؤى وطروحات (إليوت كوهين) في مؤلفه " القيادة العليا - الجيش ورجال الدولة والزعامة في زمن الحرب " . فضلاً عن دور شخصيات مؤثرة ومراكز أبحاث مثل (رول مارك غيريشت) الباحث في مؤسسة أمريكيان أنتربرايز للدراسات . (مايكل ليدن) وهو من أصحاب النفوذ في دائرة المحافظين الجدد ، ومنظر مشروع تغيير الشرق الأوسط ويعمل في معهد أمريكيان أنتربرايز . كما تعود الأصول النظرية إلى الأب الفكري للمحافظين الجدد (ليو شتراوس) المدافع عن الفلسفة الكلاسيكية ومنطلقاتها الأخلاقية والداعي إلى الدفاع عن مصالحها بالقوة . (برنال لوييس) من جامع برنستون

(*)كلية العلوم السياسية، الجامعة المستنصرية.

(فؤاد عجمي) من جامعة جونز هوبكنز و (روبرت ساتلوف) المدير التنفيذي في مركز واشنطن لسياسات الشرق الأدنى¹ .

وهي إحدى اختراعات الجناح اليميني في إدارة بوش الابن وهي الإدارة التي خضعت مقاليد أمورها لهذا اليمين وخصوصاً ديك تشيني وفريقه ، هؤلاء كانوا من أشد المحبذين لتطبيق سياسة جديدة تجاه دول الشرق الأوسط تقوم على نقل المعركة لداخل هذه المجتمعات من خلال خلق مشاكل داخلية عرقية وطائفية ... الخ ، تستنزف إمكانيات هذه المجتمعات مما يسهل على الإدارة الأمريكية ومؤيديها داخل البلد من إعادة بناء هذه المجتمعات بما يخدم المصالح الأمريكية² .

وجذورها أسبق من ذلك حسب الورقة السياسية التي قدمت عام صاغتها لجنة برئاسة ديك تشيني الذي أصبح نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن فيما بعد أذ تعود إلى تجارب سابقة لما حدث أبان الثورة الفرنسية عام أو لما قامت به أجهزة المخابرات الأمريكية بعد سقوط الشيوعية لأحداث الثورة البناء في رومانيا وتشاوتشيسكو ومظاهرات جورجيا وأوكرانيا أو محاولة إغتيال الرئيس الفنزويلي تشافيز³ .

وفي بعدها الاقتصادي حققت النظرية أنتشار واسع في الأوساط الاقتصادية أذ يعود لها الفضل حسب طروحات (يف شومبيتر) () (-) () () الاقتصادي الأمريكي النمساوي الشهير الذي نظر لفكرة الفوضى البناء كدور محوري في البناء النظري للرأسمالية الغربية عموماً والأمريكية على وجه الخصوص . لفرضية الأنقراض الذي تقوم به الصناعات المنتجة والشركات الحديثة على بعضها البعض وبقسوة للقضاء على أوجه الضعف والقصور في السوق العالمي مما يؤدي إلى تحسين الإنتاج وتحقيق مزيد من الأرباح . فالفوضى الاقتصادية الناتجة هي مفتاح مؤدي إلى البناء الاقتصادي الجيد فالهدم ينتجه بناء جديد وجيد⁴ .

ويعد (روبرت ساتلوف) مدير مركز واشنطن لسياسة الشرق الأدنى أب النظرية أذ تطرق لها مدعياً لأعتمادها في مقالة تحليلية دورية بتاريخ (-) . وهو معروف عنه وعن مركزه كمركز يمثل الذراع السياسية والفكرية الضاربة والمروجة للمصالح الإسرائيلية داخل الولايات المتحدة⁵ .

لقد أصبحت فكرة القوة ملتبسة ومحيرة وموضوع مداولة حيوية في العقود الأخيرة . وثمة مفكرون أوضحوا الفارق بين القوة " الصلبة " والقوة " الرخوة أو المرنة " حيث أن المصطلح الأول يشير خصوصاً إلى القوة العسكرية وإرادة استخدامها والقدرة على استخدامها بصورة قسرية . والقوة الرخوة يمكن أن تكمن في أبعاد غير عسكرية كالقوة الثقافية أو في القوة الشرعية " الحق " بدلاً من " القوة " وقوة القدوة والجانبية . لكنها تتضمن عموماً الحصول على نتائج عن طريق الإقناع والتفاوض لا عن طريق الإكراه⁶ .

لذلك أن فهم الولايات المتحدة كإمبراطورية قوية والتصرف في السياسة الخارجية هكذا هو فهم خاطئ . وأرنولد توينبي عزا في دراسته للتاريخ سقوط الإمبراطوريات في نهاية المطاف إلى هكذا فهم وإلى الحكم

¹ نقلاً عن

Anne Norton leo strauss and the politics of American Empire U.S.A. Yale Press 2004 P. 38 .

² Ibid p. 99.

³ Thomas P.M. Barnett the Pentagon's new map Bantam 2004 P. 66 .

⁴ نقلاً عن :- ماذا يريد العم سام ؟ ترجمة عادل المعلم القاهرة دار الشروق و □ .

⁵ منذر سليمان □ دولة الأمن القومي وصناعة القرار الأمريكي : تفسيرات ومفاهيم □ مجلة المستقبل العربي العدد □ : .

⁶ أليسون ج . - بيلز التحكم الأمني العالمي : عالم من التغير والتحدّي . في كتاب التسليح ونزع السلاح والأمن الدولي (مجموعة مؤلفين) الكتاب السنوي مركز دراسات الوحدة العربي . بيروت تشرين الثاني .

الانتحاري لقادتها . لذلك يمكن القول أن الحسنة التي تشفع لأمريكا أن الرؤساء الأمريكيين بمن فيهم الكارثيين مقيدون بولاية حكم تمتد ثماني سنوات خلافاً للأباطرة⁷.

لذلك روح أغلب الكتاب الأفكار والرؤي كأذرع للقوة الأمريكية الجامعة أو ما سموها باللحظة الأمريكية أو الأستثنائية المتاحة للولايات المتحدة . فقد تحدث (توماس بارنيت) كبير المحللين العسكريين في كلية الحرب البحرية الأمريكية في كتابه المعنو " خريطة البنتاجون الجديدة " الحرب والسلام في الشرق الأوسط " الذي ضم محاضرات ألقاها على فريق من كبار المسؤولين العسكريين والسياسيين الأمريكيين عن نظرية عمل جديدة لمؤسسة الأمن القومي الأمريكية بعد أنتهاء الحرب الباردة . وبعد هجمات . ايلول على واشنطن ونيويورك بشكل خاص متمماً لأفكار ونظريات ومقترحات (صموئيل هنتغتن) (فرانسيس فوكوياما) (توماس فريدمان) وسواهم . برسم الحدود الجغرافية التي يمكن للقوات الأمريكية الوصول إليها والخطوط العريضة للدور الذي يمكن للولايات المتحدة القيام به .

شدد بارنيت على العولمة والأرهاب منهياً عملياً نموذج الحروب التي كانت القوى العظمى تشنها على مدى القرون الأربعة الماضية . وأن التهديد الراهن لمنظومة الحضارة الغربية مصدره الفجوة متزايدة الأتساع بين تلك المنظومة ومنظومة واسعة تشمل دول وشعوب أمريكا اللاتينية ودول الكاريبي وأفريقيا وجنوب الصحراء والشرق الأوسط وآسيا الوسطى والعديد من دول جنوب غرب آسيا . فلا بد من هيكلة القوات المسلحة الأمريكية من جديد لتستطيع التعامل مع التهديدات المستجدة المتصاعدة عبر تقسيم هذه القوات إلى أجزاء مستقلة عن بعضها . يكون جزء منها قوة ضرب سريع لقمع الدول والكيانات غير الحكومية المعادية للولايات المتحدة أو المعرقة للمصالح الأمريكية في أي مكان في العالم⁸.

وتفتقر نظرية الفوضى البناء بأن السلام في الشرق الأوسط يتعلق بنشر الديمقراطية في العالم العربي ، ولتحقيق ذلك على الولايات المتحدة أن تكون مستعدة للإجابة على الإشكالية التي تقول بأن (الستاتيكو) القائم على المنظمة منذ عقود هو مصدر الخطر الحقيقي⁹.

والسبب يعود لا لأهمية تلك المنظمة فقط وإنما لأنها تضم دول ضعيفة وهشة والخطر الحقيقي بموجب منطوق نظرية الفوضى البناء هو من الحكومات الهشة أو الضعيفة هناك خوفاً من أن تفرض وصول وطنيين ضد المصالح الأمريكية أو معاديين لأمريكا أساساً . والنقير الصادر عن المعهد الوطني للدراسات الأستراتيجية الأمريكي في جامعة الدفاع الوطني حدد ثمانية اتجاهات عالمية تتحكم بالبيئة الأمنية العالمية المعقدة تفرض تحديات على الدور الأمني الأمريكي من أبرزها (تزايد التحديات الناجمة عن الدول الهشة أو الفاشلة)¹⁰.

ويبدو من قراءة متأنية لأفكار أنفة الذكر أن صناعة الفوضى " نابعة من أيمان عقائدي عميق لدى من يصنعون السياسة الخارجية الأمريكية والقائم على فكرة قوامها أن التغيير في حد ذاته لا يكفي وأن الأوضاع الداخلية في المنطقة وثقافتها تحتاج تحولاً شاملاً . ومن هنا كان ولع المنظرين أولئك بمفاهيم من قبيل "

⁷ زيغنيو بريجنسكي الفرصة الثانية ترجمة عمر الأيوبي بيروت دار الكتاب العربي

⁸ . خير الدين عبد الرحمن تصدعات في القلعة الأمريكية : تحليل أستراتيجي دمشق منشورات اتحاد الكتاب العربي

⁹ هادي قبيسي السياسة الخارجية مريكية بين مدرستين : المحافظة الجديدة والواقعية بيروت الدار العربية للعلوم

¹⁰ Patrick Mcronin (ed) Global strategic Assessment 2009 : America's security role in a changing world Washington . DC : Institute for National strategic studies 2009 p. 22 .

التدمير الخلاق " " " الفوضى المنظمة " والتي تعقبها " إزالة الألقاض والأشلاء " ثم تصميم جديد لبناء مختلف

وبالملموس تهدف الفوضى البناءة إلى إعادة رسم الخريطة الجغرافية والسياسية في منطقة الشرق الأوسط لتطبيقه كنموذج في مناطق أخرى من العالم . إذ يمكن القول أن تفكيك المنطقة هو خطوة أساسية كان في مخطط المحافظين الجدد في أمريكا لإعادة رسم المنطقة بما يتواءم مع دور أمريكا الجديد في العالم . يعتبر مايكل ليدين وهو من كبار رجالات المحافظين أن فكرة الفوضى والتغيير عبر الفوضى ذات جذور في الفكر الغربي الليبرالي فهي تدعى بأن الفوضى الخلاقة هي معلم أساسي في الفكر داخل المجتمع وخارجه ، تتبع تدمير النظام القديم كل يوم¹¹ . وإذا عدنا إلى فكر شتراوس وموقفه من التاريخانية ونظرته العمالية إلى الفلسفة والفيلسوف كعناصر تغيير في المجتمع والتاريخ أدركنا خلفية ما يرمي إليه ليدين¹² . ومن ناحية أخرى يشرح (دورو نسورو) استراتيجية الفوضى البناءة أو الخلاقة فيقول " تتضمن استغلال عناصر داخل المجتمع تتطلع نحو التغيير ودعمها عبر تحريك الإعلام المحلي والعالمي وأختراع رمز يمكنهم التوحد حوله ، وزيادة الضغط الدولي تجاه القوى التي يعارضونها¹³ .

والفوضى الخلاقة أو البناءة هو نمط من التفكير والسلوك الذي يجسده كسلوك ومثال للتوضيح ، أن الجيوش المعتدية على الأمم والشعوب والتي كانت تعتمد ضخامة قوتها وأنماط تنظيمها العسكري الحديث هي وسيلة تفوقها وكسبها للحروب ضد جيوش الدول الأضعف والأقل تقدماً باتت تستخدم أساليب حرب العصابات في مواجهتها لأعمال حرب الشغب والفوضى البناءة من خلال تحليل مضمون المصطلح هي موقف سلبي من العمل الشعبي بأعتبار العمل الشعبي فوضى ، وهي استخدام للفعل الشعبي في الآن ذاته لأهداف بناءة من وجهة نظر مروجي المصطلح¹⁴ .

والحاجة إلى الفوضى البناءة مردها إلى أفتقاد أي طرف خارجي القدرة على التأثير في بنية دولة مستهدفة دون وجود عوامل داخلية مساعدة ومرتبطة به من حيث الأهداف أو بشكل عضوي¹⁵ . أخيراً ثمة تداخل وتناقض فكري وأيديولوجي للمصطلح من حيث التنظير بأعتباره وسيلة ناجعة للتعديل أو الأحتواء والتطوير وبين ما أفرزه ذلك المصطلح من ضبابية وغموض كأداة تخدم الدول ولاسيما المتخلفة أو الضعيفة حسب المنظور الأمريكي .

المحور الثاني :- العراق حجر الدومينو لمعادلة أمنية جديدة في الخليج العربي

يشكل العراق في الإدراك الاستراتيجي الأمريكي أهمية استراتيجية لا غنى عنها ، تكفلها موقعه الجيوستراتيجي فضلاً عن حيازته وأملاكه قدراً مهماً من النفط إضافة إلى كونه يعد حجر الزاوية في ترتيب معادلة الأمن في الخليج العربي . وقبل الولوج في أهمية العراق ودوره في نظرية الفوضى البناءة، لا بد من الوقوف أولاً للدخول إلى تطبيقا النظرية معرفة وسائل تلك النظرية أو أدواتها والتي يمكن تحديدها في:

.. استخدام القوة العسكرية لتغيير الأنظمة المحددة كهدف استراتيجي أمريكي .

¹¹ هادي قبيسي مصدر سبق ذكره □ .

¹² المصدر نفسه.

¹³ المصدر نفسه.

¹⁴ The Washington post 11/6/2005 p. 2 .

¹⁵ The New York times 27/3/2005 p. 1 .

- . تفجير الأمن الداخلي للدول المستهدفة من قبل الولايات المتحدة قبل استخدام القوة وبعدها بالقوة الأمريكية اللينة (وهي أساس العمليات المخبرانية القذرة ولكن بقفازات مخملية).
- . أن تلك الاستراتيجية ممكنة للأعداء والأصدقاء معاً .
- . دعم سياسة الزعزعة الديمقراطية بالأرتكاز على قطاعات من المجتمع المدني تطالب بالتغيير ودعمها إعلامياً سواءً في النطاق المحلي أو الدولي .
- . تفكيك الوضع القائم في بلدٍ ما ولو أدى ذلك إلى حدوث فوضى مؤقتة تمهيداً لإعادة تركيب هذا البلد على أسس جديدة ملائمة أكثر للمصالح الأمريكية .
- . أرباك الأمور ونقلها من مرحلة الجمود إلى مرحلة المرونة والهلامية والحركة لكي يمكن التدخل وتشكيل الأمور وتطبيق السيناريوهات الجاهزة .

فالولايات المتحدة وبعد أحداث الحادي عشر من أيلول □ تغيير مفهوم الأمن لديها كما تغير أسلوب الحرب وغايتها ، فالحرب ليست أداة للسياسة وإنما ربما تكون أخفاق السياسة . والأمن ليس التحرر من التعرض للهجوم من أمم أخرى . وإنما الأمن من العنف الإرهابي ، وأمن المعيشة ، وأمن المجتمع¹⁶ . وتوافقاً مع نظرية الفوضى البناء وأنسجاماً مع التغيير الذي لازم استراتيجيتها الحالية لا تستطيع الولايات المتحدة أن تتجنب إثارة الخوف والسخط مع أخذ قوتها بالأعتبار قوة الأمر الواقع . زيادة على ما أستطاع فعله بسمارك ألمانيا . ولكنها تستطيع أن تحاول تقليل رد الفعل المعادي إلى حده الأدنى عن طريق بحثها عمداً عن طرق تؤدي إلى إظهار سيطرتها أخف مما تبدو حقيقية¹⁷ .

ومن خلال متابعة تطبيقات نظرية الفوضى البناء . نجد أنها لم تتخذ شكلاً أو نمطاً واحداً ، إذ هي في العراق تجسدت في إنهاء جهاز الدولة العراقي وتفكيك المجتمع العراقي إلى مكوناته الأولى ، لكي يسهل البناء العربي الجديد .

وهذا يتفق مع مقولة وزير الدفاع العراقي الأسبق علي عبد الأمير علاوي في حديثه عن تلك الفوضى " أن الدولة العراقية التي تم أنشاؤها في أعقاب الحرب العالمية الأولى وصلت نهايتها الآن ، وتناضل خليفاتها في هذه الأثناء من أجل أن تولد في بيئة موسومة بالآزمات والفوضى¹⁸ . فالأسلوب الأمريكي في الفوضى في العراق كان إقتل أولاً ثم أطرح الأسئلة .

بينما نجد تطبيقات أخرى للنظرية مغايرة لذلك ، مثل ما جرى في جورجيا كانت استخداماً منظماً لحركة مدفوعة الأتعاب للقيادات . عملت على تجييش الغضب الشعبي وتوجيهه باتجاه تغيير حكم غير موالي للولايات المتحدة بأخر موالي لها . كما نجدها في لبنان قد جرت باستخدام مفجر ديناميته في البداية - اغتيال رفيق الحريري - لتفجير غضب شعبي ، وتوجيهه من بعد نحو تحقيق أهداف للأجندة الأمريكية في لبنان .

غير أن الفوضى البناء يمكن أن تجري وفق تجليات أكثر تعقيداً كأن يجري تحريك الشارع لإحداث نقلات داخل أجهزة الحكم نفسها أو لتمكين مجموعة من الإحاطة بأخرى داخل أجهزة الحكم نفسها وليس فقط

¹⁶ غاري هارت القوة الرابعة : الاستراتيجية الكبرى للولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين ترجمة محمد التوبة . السعودية مكتبة العبيكان □ □ □

¹⁷ فرانسيس فوكوياما، أمريكا على مفترق الطرق، ترجمة محمد محمود التوبة، السعودية، مكتبة العبيكان، ط □ □ □

¹⁸ جوين دايا الفوضى التي نظموها : الشرق الأوسط بعد العراق ترجمة بسام شبحا بيروت الدار العربية للعلوم ناشرون □ □ □

لتمكين قوى خارج الحكم للقفز إليه كما هو يمكن أن تجري وفق تغيير تدريجي داخل أجهزة الحكم والأحزاب الحاكمة الخ¹⁹.

وعوداً على عنوان المحور الثاني لماذا العراق؟ الجواب لأن العراق بثقله وموقعه الاستراتيجي مهم لإعادة رسم معادلة أمنية جديدة في الخليج العربي، فإيجاد عراق جديد على قواعد تختلف عن تلك التي قام عليها منذ أستقلاله الوطني، والتي تعبر في حينها عن رؤية بريطانية مهددة للشرق الأوسط في حقبة ما بين الحربين العالميتين، أو عن طريق صفقة أستعمارية مبكرة بين القوتين الكبيرتين أنثذ (بريطانيا وفرنسا) أثمرت عن اتفاق (سايكس - بيكو) أما القواعد الجديدة التي تقيم عليها الولايات المتحدة كيان العراق، فستأخذ في الحسبان مصالحها الأستراتيجية الحيوية في المنطقة بعد إنهاء التوازن الدولي والأقليمي فيها منذ إنكفاء الأتحاد السوفيتي عنها، على أن لا تقوم فيه حكومة مركزية قوية بمقربة من أبار النفط وأسرايل²⁰.

ولأن العراق حسب أفكار النظرية يشكل حجر الدومينو^(*) للتغيير. ووقفت خلف ذلك قوى دافعة من منظري المحافظين الجدد والليبراليين الجدد ذوي الروابط المتينة بأسرايل. عنو بالنجاح بتفكيك العراق بصورة كاملة كحجر دومينو أول في سلسلة أخرى من الحروب لإعادة رسم الشرق الأوسط بأكمله حسب تعبيرهم. وموهو إيدويولوجيتهم بطبقة رقيقة من البلاغة المتحدثة عن الترويج للديمقراطية في الشرق الأوسط²¹.

ويوضح (بارنيت توماس) قدرة فلسفة تلك الأستراتيجية في العراق بأنها تتضمن زيادة الولايات المتحدة على التدخل. ففي محاضرة أعطاها عنوان " خريطة البنتاجون " المنشور عام ٢٠٠٠ (والذي لخصها وترجمها عاطف العمري في (الأهرام المصرية) فإن النظرية التي يتناولها بارنيت تقسم العالم إلى من هم في القلب أو المركز. ويعني بهم الولايات المتحدة وحلفاءها في الغرب - أما الآخرون فهم من سماهم دول الفجوة أو الثقب. ويقول بارنيت أنهم مثل ثقب الأوزون الذي لم يكن ظاهراً قبل الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ (الثقب - بحسب بارنيت - الدول المصابة بالحكم الأستبدادي والأمراض والفقر المنتشر والقتل الجماعي الروتيني أو النزاعات المزمنة التي تصبح بمثابة مزارع لتفريخ أو إنتاج الجيل القادم من الأرهبيين .

ويدعو بارنيت دول القلب للرد على صادرات دول الثقب مثل الأرهباب والمخدرات والأوبئة للعمل على أنكماش هذا الثقب. ويدعو إلى إتباع الفوضى البناءة في العراق أولاً ثم دول الخليج العربي ودول عربية أخرى لأحداث الفوضى المطلوبة لإعادة بناء المنطقة بما ينسجم مع المصالح والثوابت الأمريكية²². إلا أن حسابات الأمريكان على الرغم مما عملوه في العراق لم تكن صائبة وكما يقال " حسابات البيدر لا تتطابق مع حسابات الحقل"²³.

¹⁹ Thomas P.M. Barnett Op.Cit. p. 39 .

²⁰ عبد الاله بلقزيز، المشروع الممتنع: التفاتت في الغزوة الكولونيالية للعراق، مجلة المستقبل العربي، العدد () .
^(*) ظهر تعبير الدومينو في نظرية الدومينو في الأدبيات السياسية والعسكرية الأمريكية إبان الحرب الأمريكية على فيتنام. وكان يشير إلى المخاوف من تساقط النظم في جنوب شرق آسيا وعلى التوالي. إذا أسقطت فيتنام الجنوبية في أيدي الشيوعيين. على غرار تساقط لعبة الدومينو إذا أسقطت أول قطعة فيها. أنظر: وليام بولك، الواقع والخيارات في حرب العراق، مجلة المستقبل العربي، العدد () كانون الثاني ٢٠٠١ .

²¹ جيمس بيتراس، الحرب الأمريكية على العراق: تدمير حضارة، مجلة المستقبل العربي، العدد () تشرين أول ٢٠٠١ .

²² Thomas P.M. Barnett op. cit. p. 65.

كذلك أنظر: باتريك سيل أيهما أولى: العراق أم أسرايل؟ صحيفة الأتحاد الأماراتية في () : .
²³ نقلاً عن: روجيه غارودي، الولايات المتحدة طليعة الأنحطاط، ترجمة مروان حمودي، دمشق، دار الكاتب، () : .

وهذا ما أكده (كرودمان) في قوله " خططنا لحرب خضناها لإزاحة صدام من السلطة دون أي خطة ذات معنى لعمليات تهدف إلى تحقيق الاستقرار وإلى بناء دولة ، لقد سمحنا لفوضى سياسية وأقتصادية أن تحل " ^{٢٤}.

فالفوضى البناءة التي أراد إدخالها المحتل للعراق لم تلقى النجاح بشقيها اللين والقاسي فمصالح الولايات المتحدة في المنطقة أصبحت أكثر تهديداً بعد التجربة العراقية منها قبلها مما يستدعي التفكير الأمريكي بضرورة تجميل الوجه القبيح لهذه التدخلات غير البناءة خاصة بعد إدراك الولايات المتحدة لهشاشة وضآلة الأدوات المستخدمة لنجاح تدخلاتها الفوضوية ^{٢٥}.

وكان الجانب السيئ للفوضى البناءة في العراق في أستهداف العقل البشري بالأغتيال أو الإبعاد عبر التسريح من أماكن عملهم وجذبهم للخارج . وحملات التطهير للعلماء والأكاديميين في الجامعات العراقية لم تكن من فراغ وقد استشهد وزير الخارجية (كولن باول) في كلمته الشهيرة في الأمم المتحدة بذلك قبل الأحتلال بثلاثة حوت على ما يزيد على (□) عالم وثقني عراقي كان يجب أحتوائهم للحيلولة دون أستخدام خبراتهم من طرف بلدان أخرى حسب المنظور الأمريكي ^{٢٦}

وكان للموساد الإسرائيلي دوراً كبيراً في ذلك على حد قول (روبرت فيسك) الصحفي البريطاني في صحيفة الأندبنديت . كما أعلن (ريتشارد باوجر) الناطق بأسم الخارجية الأمريكية عن تأسيس مكتب في بغداد في إطار التوظيف السلمي بأسم (المركز الدولي العراقي للعلوم والصناعة) يستهدف إلى :-
 . محاصرة ما تبقى من العلماء وأخضاعهم قسراً لمسارات مهنية محددة سلفاً (أقرب إلى السجن الوظيفي) .

. منع العلماء من الأنتقال مع خبرتهم إلى دول أخرى ، أو العمل مع منظمات لا تروق لواشنطن .
 كما تم تدمير دار الكتب والوثائق في بغداد ونهب بيت الحكمة والمعهد المتخصص للصناعات الهندسية التابع لوزارة الصناعة ، والمكتب الوطني للتقييس والسيطرة النوعية التابع لوزارة التخطيط والمركز الإداري التابع لوزارة الأسكان . ولم تسلم المكتبات الشخصية مثل مكتبة ((أحمد سوسة) ومكتبة (الأب أنستاز الكرمل) ومكتبة (محمد بهجت الأثري) من السرقات والتخريب ^{٢٧}.

لذلك يمكن الأتفاق بأن ما تم في العراق كان مديراً ومخططاً له قبل ذلك . فمن المعلوم أن وزارة الخارجية الأمريكية كانت من أعدت قبل بدء الحرب في العراق دراسة شاملة ومستفيضة تضمنت خرائط تفصيلية لخطط إعادة إعمار وإدارة العراق ودربت العديد من العراقيين على تنفيذ مفاصله المختلفة ، لكن البيت الأبيض تجاهلها كما لم يعرها البننتاجون (الدفاع) إهتماماً .

وأنتلاقاً من مبادئ ومتغيرات جديدة ترسم الإدارة الأمريكية فرضية إعادة رسم المعدلة الأمنية الجديدة في الخليج العربي ، وهي كالتالي :-

. أن النصر في أحتلال العراق يغري بدفع القوات الأمريكية نحو هدف آخر تالي في القائمة (الشهية تأتي بعد الأكل وقد أعتده هتلر في توسيع النازية في الحرب العالمية الثانية).

²⁴ أنتوني كوردمان نحو أستراتيجية أمريكية فعالة في العراق مجلة المستقبل العربي العدد (□)

²⁵ رجب البنا مصدر سبق ذكره

²⁶ جيمس بيتراس مصدر سبق ذكره

²⁷ عبد الحسين شعبان العلماء والأكاديميون العراقيون : مخاوف وتحديات مجلة المستقبل العربي العدد (□)

.. أن الولايات المتحدة مستعدة للتخلي عن حلفائها وأصدقائها والعمل وحدها من أجل مصالحها وحدها (وفي ذلك إشارة ذات بعدين الأول لحلفائها الداعمين لها في استراتيجيتها الجديدة من أوروبا واليابان وأصدقائها في المنطقة بالبعد الثاني . أي ممكن أن تتخلى عنهم ويشملهم التغيير كالسعودية والبحرين وغيرها)

. زيادة مساحة الديمقراطية في دول معينة وتقليص مساحة الديمقراطية في دول أخرى .
. أن هذه النظرية وآلياتها تعمل على استثمار أخطاء الحكومات والأنظمة في الحكم ومن ثم فهي تقوم على أسس واقعية ومن ثم تلبي فعلياً في جانبها الأول أو في الشق الأول من المعادلة مطالب شعبية حقيقية بالإطاحة بنظم دكتاورية أو متسلطة أو فاسدة ويمكن ذلك أن يشمل دول الخليج العربي بالتحديد

وثمة بوادر فعلية على صعيد الخليج العربي بدول مجلس التعاون تشير إلى ذلك . وبوادر أخرى من إدارة أوباما بعدها لا تمثل استثناءاً عن الإدارة السابقة لها في اعتناق تلك الاستراتيجية أو النظرية أو الدفاع عنها . ف فيما يتعلق بدول مجلس التعاون الخليجي فالهواجس والمواقف الجديدة للمجلس ربما يسفر عنها تشكيلة جديدة لمعادلة الأمن في الخليج العربي . فهناك تغيير طفيف بموقف مجلس التعاون الخليجي الذي كان مؤيداً لسيادة العراق على شط العرب بأكمله منذ أنشائه عام ، أذ سيوازن المجلس بين الضغوط والمخاوف من إيران والمصالح المتضاربة للكويت العضو في المجلس مع العراق . وربما تكون الصفقة وهي ليست ببعيدة عن الولايات المتحدة موقف من إيران إلى درجة لا يحسب كتأييد كلي للعراق كما كان في السابق أخذاً بنظر الاعتبار المتغير الكويتي . وتغير آخر لموقف المجلس من الصراع بين الإمارات العربية المتحدة بشأن الجزر الثلاث (أبو موسى ، وطنب الصغرى وطنب الكبرى) فالعلاقات الإيرانية الإماراتية غير ما كانت عليه في الثامنينات وإيران أمس غير إيران بقدرتها العسكرية الحالية . فلا يروق للمجلس والإمارات إثارة إيران سوى لفظياً وأ اعتماد التهذئة والأحتواء منطلقاً خوفاً من أي تغييرات قد تلوح في الأفق إذا ما أتفتت إيران بصفقة سياسية على مبادلة منطقة بمنطقة مع الولايات المتحدة لتعديل نفوذها أو مده في مناطق أخرى من الخليج العربي²⁸ .

أما فيما يتعلق بإدارة الرئيس أوباما وهي تيار المدرسة الواقعية المخالف تقريباً لتيار سلفه (بوش الأب) (المحافظين الجدد) والذي يدعو إلى قراءة تاريخ المنطقة بتعقل فكري وسياسي ويرى أن تحقيق المصالح الغربية والأمريكية لا يمكن في التدمير وإشاعة الفوضى بل في بناء سياسة استراتيجية للتحويل الديمقراطي والتنمية البشرية في منطقة الشرق الأوسط الكبير الممتد من المغرب غرباً إلى أفغانستان شرقاً²⁹ .

إلا أنه في أفكار المحافظين الجدد من تجد تمثيلاً له داخل الحزب الديمقراطي نفسه - حزب الرئيس أوباما - من خلال ما يعرف بجناح الديمقراطيين الجدد أو الديمقراطيون المحافظون الجدد . وهو جناح يبنى أفكار قريبة من أفكار المحافظين الجدد مثل الدعوة إلى زيادة القوات في أفغانستان ومعارضة الأنتفاخ الأمريكي والحوار مع إيران . ومعارضة فتح تحقيقات في أساءات وأنتهاكات إدارة بوش الأب لحقوق الإنسان في حربها على الإرهاب وخاصة في العراق . والكثير منهم ذي صلة بأقرانه داخل الحزب الجمهوري معقل الفكر المحافظ . وأبرز أنصاره في الإدارة هم (هيلاري كلينتون) وزير الخارجية التي تصف نفسها بأنها " صقر

²⁸ روز ماري هوليس الشرق الأوسط الكبير في كتاب التسليح ونزع السلاح والأمن الدولي الكتاب السنوي مصدر سبق ذكره

²⁹ محمد الخولي الشرق الأوسط الكبير القاهرة دار الهلال

عسكري " (جوزيف بايدن) نائب الرئيس والسفيرة الأمريكية في الأمم المتحدة (سوزان رايس) . إضافة إلى (دينس روس) (ريتشارد هولبروك) العاملين في وزارة الخارجية³⁰ .
وإن كان أمن الخليج العربي تكفله زواياها الثلاثة (العراق - السعودية - إيران) فإن مسرح المتغيرات الجارف الآن وفي الأمد المنظور نال وسينال من زوايا المثلث التقليدية لإيجاد خريطة جديدة أو معادلة جديدة تقرها مدخلات التغيير الداخلية والخارجية .

المحور الثالث تقويم الفوضى البناءة

يقول (توماس كاروتارز) أن التفاؤل المفرط لقدرة أمريكا على إعادة تصنيع شرق أوسط جديد هو تفاؤل بعيد عن الواقعية . لأن أهداف أمريكا في الشرق الأوسط في الحقيقة لا تضع الديمقراطية في المقام الأول .

ويصل كاروتارز إلى أن هناك تناقضاً واضحاً بين المعلن عن الحرب الأمريكية على الإرهاب وموضوع تغيير النظم الحاكمة في اتجاه الديمقراطية ، على أن أمريكا تريد زيادة الديمقراطية في دول معينة وأضعافها في دول أخرى . والسبب حسب تفسيره يعود إلى تيار المحافظين وخطى بوش الأيمن نفسه الذي حاول الجمع بين الفلسفة الواقعية الجديدة لوالده الرئيس بوش الأب وفلسفة القوة التي تجذبه وتجعله يساير تيار الريحانية الأمريكية . لذلك أعتد أسلوب الأحتضان المتذبذب اسماء Tamtaliging للشعوب والحكام ، يحتضن حاكم ودولة ثم ينقلب عليها ثم يعود إلى أحتضانها مرة أخرى وهكذا³¹ .

لذلك وصف البعض نظرية الفوضى البناءة من قبل السياسة الواقعية Real Politics التي ارتبطت في الأذهان بأفكار يتم تقييمها على أنها سيئة³² .

فهي لا تعدو أساساً أن تكون نظرية . إذ لا تستند على مبررات فكرية ثابتة وإنما متخلخلة ومن صنع المخابرات ودهاليز الخطط والسياسات المفبركة . ولا تقوم على قواعد ولا شرعية قانونية لها إذ تعتقد دوماً أن القوة الخارجية المسموح لها بالتدخل هي الولايات المتحدة كـ (منقذ) (مخلص أوجد) . دون التفكير بآثار ذلك الحضارية والإنسانية . فهي بدلاً من أن تسعف المريض تطلق الرصاص عليه . تعبر عن ثنائياها عن مرحلة إنتقالية أو تكتيك إستراتيجي يخدم مصالح محددة ليس إلا .

لذلك فهي نظرية عقيمة لا يمكن الأستناد عليها كلبنة أساسية لتوليد فكر إستراتيجي ناجح للولايات المتحدة في المستقبل المنظور . هذه الفوضى لها عمر زمني وهي تمثل تكتيك ضمن الأستراتيجية الأمريكية القائمة الآن على التدخل الإنتقائي المرن في الشرق الأوسط . ولكن ثمة أسئلة تثار لماذا الفوضى البناءة في منطقة نفوذ أمريكي ؟ وبناءة لمن ؟ وعلى يد من ؟ وماهي الضمانة أن تخرج من الفوضى عملية بناء للمصالح الأمريكية أو تخدمه ؟

³⁰ تراجع المحافظين الجدد في الولايات المتحدة التقرير الأستراتيجي (مركز الأهرام القاهرة) . □ □ .

³¹ رجب البنا مصدر سبق ذكره □ □ - □ □ .

³² محمد عبد السلام المصالح القومية : المفتاح الأساسي لتحليل العلاقات الدولية سلسلة دراسات رقم القاهرة المركز الدولي للدراسات المستقبلية والأستراتيجية

وزارة البحرية البريطانية الذي كان يتولاها آنذاك اللورد (ونستون تشرشل) أن تحول سفنها القتالية من الدفع بالفحم إلى الدفع بالنفط³⁷.

فالفوضى البناءة أو الخلافة التي جرى تطبيقها في العراق أصبحت تحدي واجه شخصية أمريكية القومية . فعلى حد تعبير الكولونيل (أندرو بايسفتش) (Colonel Andrew Bacevich) الذي يدرس الآن مادة العلاقات الدولية في جامعة بوسطن . أن الفوضى البناءة وما رافقتها من سلوك أمريكي في العراق سواء في سجن أبو غريب أو في الفيلم الذي صورته شبكة (أن بي سي) الأخبارية الأمريكية داخل مسجد الفلوجة ويظهر جندياً من مشاة البحرية يطلق النار على عراقي جريح كان من الواضح أنه يطلق صرخة أستغاثة . كل تلك المظاهر وغيرها زادت الكراهية من أكثر من مليار مسلم في أنحاء العالم لكراهية أمريكا . وعلى حد وصف الكولونيل أنها " نحت نحو إفساد أعظم كنوز أمريكا القومية وهو الاحترام شبه الكلي من البشرية"³⁸ .
وبالقدر الذي أصبحت فيه الولايات المتحدة بعد أحداث (ايلول) (" الثور الهائج " الذي لا يوقفه أحد ، وبكل مساوئها ، فإن الجانب الآخر قد وفر الفرص لهذا الطرف . فأغلب الدول العربية كانت السبب في تدخلات الغير وتدخل أطراف خارجية وخاصة الولايات المتحدة . أما لضعفها أو لأفتقارها لأبسط قواعد إدارة الدولة الحديثة .

فالنموذج العربي لم يتجاوز بعد حرب القبائل في إدارة الصراع والأزمات ، ولإيجاز الحديث هنا ، يمكن القول ببساطة أن هذا العلم (علم إدارة الأزمات) غريب عن العالم العربي³⁹ .

والعديد من الدول العربية تضطهد شعوبها وتهدر ثرواتها وتفتح الفرص للطرف الخارجي كي يسوقها أو توفر الفرص الملائمة لأستغلالها . لذلك طورت واشنطن في أروقتها الأكاديمية والسياسية والأستراتيجية مفهوم جديد لأستغلال أو أحتلال تلك الدول من خلال مصطلح رفاهية الفرد . أذ أن رفاهية الفرد الأمريكي تبيح للإدارات الأمريكية إدارة موارد دول أخرى قد تهدد رفاهية الفرد الأمريكي⁴⁰ .

وكان " اوثانت أو يوثانت " الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة والأسويي الوحيد . الذي تولى هذا المنصب قد قال في ستينيات القرن العشرين " متى نشبت الحرب صارت الحقيقة أول ضحاياها"⁴¹ .
فالسبب والتبريرات للحروب والنظريات دوماً تقوم عادة على مبالغات محسوبة تسعى إلى أحتلال العقول والعبث بتوجهاتها وأحكامها عبر تعبئة التأييد والتفهم في صفوف الأصدقاء ، في مقابل زرع الشك وعدم الثقة والأستعداد للأنهيار في صفوف الخصوم .

ومما لا شك فيه أن تأثير زمن وأستخدام هذه الأستراتيجية سيظل حتى في ظل إدارة أوباما الواقعية . لأن إدارة أوباما لم تشكل إنقلاباً جذرياً عن الفوضى البناءة في السلوك في المنطقة وهذا ما يفسر طلبها من دول الخليج العربية السنة بالتحديد القبول بإيران العدو وأعتبار إسرائيل الحليف بصورة مباشرة أو غير مباشرة لإعادة رسم المعادلة الأمنية الأنبية بما يتفق مع منظورها الأستراتيجي الجديد القابل للتعديل بقبول شراكة مع إيران أو دور إيراني جديد على حساب دول خليجية ضعيفة ومهمشة .
وإزاء ذلك فما هي خيارات الولايات المتحدة الجديدة ؟

³⁷ مايكل كلير الحروب على الموارد ترجمة عدنان حسن بيروت دار الكتاب العربي () - .

³⁸ وليام بولك مصدر سبق ذكره □ □ .

³⁹ حسن بكر أحمد إدارة الأزمة الدولية القاهرة مركز الدراسات السياسية والأستراتيجية () - .

⁴⁰ قارن مع : . خير الدين عبد الرحمن تصدعات في القلعة الأمريكية مصدر سبق ذكره - .

⁴¹ المصدر نفسه .

. ربما تلجأ إدارة أوباما إلى إجماع استراتيجي جديد في المنطقة لتحقيق معادلة أمنية خليجية جديدة .
. اعتماد أسلوب صفقات السلاح مع تلك الدول مع أستبعاد العمل العسكري إزاء إيران لفترة محسوبة
استراتيجياً إلى أن تنتهي الفرصة الملائمة داخليا وخارجياً للعمل العسكري ضد إيران .
. اللجوء إلى هجمات تكتيكية في ظل أنكفاء استراتيجي في المنطقة ناجم عن الفشل الأمريكي في عموم
منطقة الشرق الأوسط .

وأخيراً أن الولايات المتحدة حين تطرح نفسها وتبرر الوسيلة كما تريد باعتبارها المنقذ للشعوب نقول
وبعد قرون من المتاجرة السابقة برسالة سامية هدفها زرع قيم الحرية والعدالة والمساواة الرفيعة في المجتمعات
المتخلفة ونشر الحضارة بين الأمم البدائية وتأهيل الشعوب البائسة للأستقلال ، ونشر مبادئ الديمقراطية ، وما
إلى ذلك من ذرائع لغزو معظم بلدان العالم وأستعباد شعوبها ونهب ثرواتها ، ومصادرة مصائرها ، تنشط عبر
الفوضى البناء وغيرها للمتاجرة بمقارعة الأرهاب اليوم كبديل أو خيار جديد تمارسه وهي قوة معروف عنها
أعتادت الكذب والهيمنة والنهب وإدعاء التفوق الفطري ، لكن الزمن يتغير باتجاه آخر بالتأكيد .

الخاتمة

نخلص مما تقدم أن الفوضى البناءة قد عبرت عن تيار قوي لازم جناح المحافظين الجدد في إدارة
الرئيس (بوش الابن) الأولى والثانية . وعلى الرغم من الأخفاقات في التطبيق ربما يستمر هذا التيار في إطار
أستمرار الصراع بين المدرستين أو التيارين المحافظين الجدد والتيار الواقعي خلال عهد الرئيس الحالي (باراك
أوباما) .

فربما تحاول قوى وشخصيات أمريكية رسم استراتيجية جديدة لعصر ما بعد حرب العراق . تقع في
مكان وسط بين المدرستين وتهدف إلى إعادة ترميم المصداقية الأمريكية . أو بكلام آخر الموقع الأمريكي الفريد
، الذي ينبغي أن ينجح نحو قيادة العالم لا الهيمنة عليه ، بحسب (بريجنسكي) ((كيسنجر).

ويستمر أستعمال الشعارات والمقولات الدينية بشكل أو بأخر لتحصيل تأييد التيار الأنجيلي البالغ التأثير في الولايات المتحدة . دون أن يكون ذلك بالضرورة داعياً إلى رسم سياسة خارجية في إطار ديني ، كما حصل في عهد (بوش الأب) .

والواقع أن الفوضى البناءة وأن كانت خياراً إستراتيجياً أو توظيفاً إستراتيجياً كما يطلق عليها البعض في صناعة الأستراتيجية . فهي شأنها شأن باقي المفاهيم والمصطلحات القابلة للتعديل فقد تستمر كسلوك بنفس محركات الفوضى ولكن يسيطر عليها بحيث تبعث إلى التغيير المطلوب وتكون فوضى معدلة تصب في نفس المحتوى وهو خدمة المصالح الأمريكية.